

عن البوسنة يقول قائمهم

شعر / محمد عبد الجواد

ترحموا وزفير الغوث يطرد
وهزم شجن من فرط ما وجدوا
يقول قائمهم: أعيـركم أذني
كما يعير غني الحي ما يعد
على الأرائك تلقانا مصائبكم
فيرقا الدمع والأجفان تبترد
نصب كاسا لدى «المذيع» نعيشنا
فنتشي وبقايا الكأس ترتعد
بأي حرف أسوق اليوم معذرتي
والحرف يهجرني والعذر لا يرد
آه! ولو تنفع الآهات ما بخلت
خواطري كلها والروح والجسد
يا أهل بوسنة لنا عند ظنكم
نحن الذين بداء الدل نفرد
نحن الذين رنين اللفظ يسكرنا
والقفر يخذلنا والزور والزبد
نحن الذين جبال الصمت تحسدنا
والثلج يغبطنا والماء والسرد

نحن الذين بریق الزیف یخطفنا
والعین ترمد حین الضوء یحتشد
نحن الذين کؤوس الصبر تعرفنا
نطوي الليالي لا هم ولا نكد
نحن الذين حريق الأيك یلهمنا
لنا بكل هشيم طائر غرد
یا مسلمي بوسنة لا تطلبوا مددا
لا یُرتجى أبداً من معدم مدد
لا تنحنوا إخواني إلا لبارئکم
وهل أفاد عبيد «اللات» أن سجّدوا؟
كالطود کونوا فلا یشغلکم عبث
عند السفوح ولا یعنیکم حسد
كالشمس تشر من علیائها ذرّاً
على الخلائق إلا من به رمد
كالنسر حلّق فی الأجواء مطلّعاً
على البرایا إذا راحوا . . إذا وردوا
كالفجر یوقظ أطيّاراً مُغرّدةً
واللیل یسحب أثواباً ویبتعد
كالنبت ینمو على تلّ بمقفرة
الغصن عدتّه والساق والوتد
کونوا کریح على الأشواک عاصفة
تجتّ شأفتها تفنی ولا تلد
كالنار تلهج وجهه الظلم منکفّاً
لا یرفع الرأس والأحشاء تتقد
کونوا کطفل ربّ الأقصی تُعانقه
والأفق یرقبه والکون والأمد!

الاتجاه الإسلامي

في شعر محمد هاشم رشيد

محمد عبد القادر الفقي

يعد الشاعر السعودي محمد هاشم رشيد واحداً من أبرز الشعراء الإسلاميين في المملكة العربية السعودية العربية. ورحلة هذا الشاعر في دنيا القريض تعود إلى أكثر من أربعين عاماً. فقد طبع أول ديوان له (وراء السراب) في عام ١٣٧٣ هـ. ومن الطبيعي أن يكون هذا الديوان حصاد سنوات سابقة من قرض الشعر. وقد صدر له حتى الآن سبعة دواوين، جمع منها مؤخراً خمسة في مجلد واحد، يمثل الجزء الأول من أعماله الكاملة. وهذه الدواوين الخمسة هي: وراء السراب، وعلى دروب الشمس، وفي ظلال السماء، وعلى ضفاف العقيق، والجناحان الخافقان.

إلى الكون في فرحة غامرة
وتسكب أضواءها الساحرة
عـرفتك في كل شيء أراه
وفي كل نسيم طواني شذاه
وفي كل صوت شجواني صده
فأيقنت أنك روح الحياة
وآمنت أنك أنت الإله

ومحمد هاشم رشيد شاعر يمتلك أدواته الفنية، ويعرف كيف يوظفها ببراعة ليصل مباشرة إلى قلب المتلقي. وهو يمتلك قدرة كبيرة على التصوير والخيال. وفضلاً عن ذلك، فهو يعايش أحداث الماضي ويحفظها بين جوانحه، وتغلغل في روحه قيم الإسلام وروحانياته. ولهذا تبدو التوجهات الإسلامية واضحة بجلاء في أشعاره، حتى إننا لا نكون مغالين إذا قلنا: إنه استوعب جيداً المفهوم الإسلامي للشعر، ذلك المفهوم الذي عبر عنه الرسول الكريم ﷺ - بقوله: (إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة)، فقد استطاع محمد هاشم رشيد أن يزاوج بين سحر البيان المتمثل في جماليات التصوير ورقة الإيقاعات الشعرية، وبين حكمة الشعر المتمثلة في ثراء المعاني، واستخلاص خبرات الحياة والتعبير عنها في لغة شاعرية عذبة، انطلاقاً من التصور الإسلامي للكون والوجود.

قيم أدبية:

الشعر الجيد الخالد ما عبر عن قيم سامية. وهذه القيم تتفاوت معاييرها بين الشعراء، بل إنها تتفاوت في أعمال الشاعر الواحد، وفقاً لظروف التجربة الشعرية، وللتغيرات التي تتاب مسيرته الفكرية عبر سنوات العمر. ويحفل شعر محمد هاشم رشيد بالقيم الروحية والجمالية والإنسانية والأخلاقية. وترتكز هذه القيم جميعاً على حيز إسلامي صاف، وعلى وعي كامل بأهمية التعبير عن قضايا العقيدة الإسلامية وهموم الأمة الإسلامية. وتتضح القيم الروحية في ديوانه (في ظلال السماء)، وعلى ضفاف العقيق بوجه خاص، وإن كانت بدايات التعبير عن هذه القيم تعود إلى ديوانه الأول (وراء السراب). ففي قصيدته (إيمان شاعر) نراه يفتح عيونه على ملكوت الله ليرى الخالق فيما أبدع في خلقه. يقول مناجياً الله عز وجل:

عـرفتك في الأنجم الساهرة
تلـوح وراء الدجى ناطرة

وهي قصيدة تفتح عيوننا على مدى عمق الجانب الروحي عند الشاعر، وتكشف لنا عن سيادة هذا الجانب في تكوين شخصيته، وعن تأصل الفطرة الدينية في كيانه منذ بدايات شبابه.

والمتمصفح لأعمال محمد هاشم رشيد الشعرية، سوف يخلق مع هذا الشاعر في أجواء إسلامية صافية تتسم بروحانياتها ومناخها الإيماني الخالص، يقول مسيحاً بحمد ربه:

لك الحمد لا تحصى عليك ثناء
وسعت البرايا منة وعطاء
إليك تعالى مأملاً ودعاء
تسوق لأفق بالجلال تضاء
فأنت كما أثبت يا خالق الورى
على ذاتك العليا سنا ومساء
لك الحمد حتى يبلغ الحمد منتهى
رضاك ونسمو غبطة ورضاء

ويتضرع إليه بالدعاء، راجياً أن يشمل بعظمته جميع الأرواح المعدنة، ويهدي بنوره كل القلوب التي ران عليها الظلام:

رباه آيات الكتاب تنزلت
نورا على الليل الدحى المظلم
وبصائر تهدي إليك ورحمة
للسائرين على السبيل الأقوم
فأجر بساحك كل روح مشفق
وأمر بفضل كل قلب معتم

ويتحدث الشاعر عن الشعائر الإسلامية، ويوضح ما فيها من عبر، مثل قوله عن صيام رمضان:

عبرة الصوم أننا نتلاقى من جديد على طريق الجهاد
فلقد وحد الصيام خطانا ومنانا، برغم أنف الأعادي

ويبدع الشاعر في تصوير مئذنة المسجد، حيث يشبهها بالأصبع المرفوع تجاه السماء، مقرةً بوحداية الخالق عز وجل، وشاهدة بصدق نبوة رسولنا الكريم - ﷺ -:

يا إصبعاً تومئ نحو السماء يا منبراً للحق عالي البناء
وقفت كالحارس فوق الذرى في موقف يجمل فيه النداء
ولا إله إلا الله في صده تنساب بكل الجواء
شاهدة للمصطفى أنه خير البرايا خاتم الأنبياء
ويطوف بنا الشاعر في الأماكن الإسلامية التي تفوح بعبق الإيمان وذكرات تاريخها الإسلامي المجيد، فيقف أمام جبل النور، مخاطباً إياه بحب روحاني صاف:

جبل النور يا جبل شب في صفحة الأزل
أنت أغرودة المني أنت أنشودة الأمل
أنت مأوى «حبيبننا» حينما قام واعتزل
ومضى في اعتكافه يرقب الحوادث الجليل
فيك (إقراً) تنزلت فسجدنا لمانزل
وحملنا كتابنا واقتحمنا به الدول
والبيت الأخير يصور بإيجاز أسباب عز المسلمين القدامى، فقد جعلوا كتاب الله في قلوبهم، وفهموا تعليماته وأحكامه، فاقترحوا أعظم أمبراطوريتين وقوضوهما ونشروا راية التوحيد في أنحاء العالم القديم.
ثم ينتقل بنا إلى جبل أحد، حيث يقف متذكراً حمزة بن عبد المطلب وشهداء موقعة أحد فيقول:

تضم يا (أحد) بلاد النبي من شرقها تمتد للمغرب
على شمال البلد الطيب
هنا على السفح المديد المديد ينام في ظلك أركى شهيد
وحوله كل همام مجيد

ويصحبنا الشاعر إلى (بدر)، حيث دارت أول معركة بين الحق والباطل، وهناك يستنطق تلال بدر ورمالها لتحدثنا عن ذلك التاريخ المجيد:

أرايت؟ هل أبصرت؟ يا للسحر في تلك التلال
خشع الجمال بها وأطرق في جوانبها الجلال
وعلى الصدى الرفاف تسبح فوق أجنحة السكون
أطراف ماض تستريح بظله قمم القرون
هي ساحبة الشهداء في بدر وأول معترك
لمعت به أسيلفنا لتضي أطباق الحلل
ثم يقف بنا أمام البيت العتيق، رافعا صوته بالدعاء:

من كل فج عميق وكل أفق سحيق
جنتاك يا رب فاملاً أكوابنا بالرحيق

قيم جمالية:

تشيع القيم الجمالية في معظم قصائد محمد هاشم رشيد، وهي قد تكون قيمة جمالية بحتة، كالإحساس بجمال الجداول والربى والأعشاب والفجر، كقوله في قصيدته (الطبيعة الخرساء):

وها هو الجدول يطوي الربى ويسكر الأعشاب من خمرة
أما تراها وهي في نشوة
وها هو الوادي السعيد البهيج والربوة الخضراء عند الغدير
يحنو عليها الفجر عذب السنن فيرقص المرح ويصحو العبير

وقد تكون القيم الجمالية وسيلة لغاية أسمى، هي الوصول إلى محبة الخالق - عز وجل - كقوله في قصيدة (حمام الحرم):

على الرمل والفجر يطوي الدجى رقيق الخطى كالشذا... كالحلم
جلست «أستبح» في نشوة وحولي الوجود انتشى وابسم
وكان الحمام بأسرابه «يستبح» مثلي بأحلى نغم
طليق الجناح بدنيا المني يرفرف بين الذرى والقمم
فقلت وقلبي حبيب الضلوع ع تهاوى صريع الأسى والألم:
حنانك يا قلب لا تبتس فحن هنا من حمام الحرم

القيم الأخلاقية والإنسانية:

والقيم الأخلاقية في شعر محمد هاشم رشيد لا تأتي في صورة مواظب مباشرة، أو في شكل حكم مستقلة جافة كما هي الحال في قصائد الأقدمين ومن هذا جدوهم من شعراء العصر الحديث، ولكنها تأتي ضمن لوحة شعرية متكاملة، وتُستشف من المعنى العام. ولا شك أن هذا تطویر كبير في الشعر الأخلاقي. حيث لا تجد الخطاب التقريبي الذي يتضح في الشعر الأخلاقي عند غيره من الشعراء، بل إن القاري لا يلتفت إلى المنحى الأخلاقي إلا بعد أن تستغرق الصورة البديعة القائمة.

أما القيم الإنسانية فهي تعد ثمرة من ثمرات التوجهات الدينية عند شاعرنا. فهو يتعاطف مع ضحايا الإنسانية، ويصور لنا - على سبيل المثال - حالة امرأة فقيرة تنام على الأرض في الشارع، وإلى جوارها طفلها الصغير في يوم عاصف بارد:

أبصرتها في هدأة الشارع تنام فوق الأرض، فوق التراب
في مقلتيها نظرة الضارع وفي محياها ظلال العذاب
نامت على الأرض وطفل صغير موسد ساعدها المجهدا
تضمه والريح كالزمهرير ترعش كفيها وتطوي اليد

وتجلى الناحية الإنسانية بوضوح في استضافته لهذه الأم وطفلها، إنقاذ لهما من شقائهما في ليالي الشتاء والجوع:

أماه... يا أماه هيا معي فالدريك قد أوشك أن يصدحا
... هيا إلى داري، وإن لم تكن قصرا تسامى شامخا في الفضاء
لكنهننا هيكل حب وفن ومعبود فيه أناجي السماء

وبين هذه القيم تتجلى عاطفة الشاعر، صدقا، واستمرا، وقوة، وسموا. وإذا كان الأقدمون قد قالوا: إن ما خرج من ينبوع القلب استقر في القلب، فإن هذه المقولة تنطبق على أشعار محمد هاشم رشيد. فشعره يخرج دون تكلف، يبطنه الإخلاص، ويخجل بالمشاعر الصادقة، وفوق هذا وذاك، فإنه ينهل من نبع الإيمان الصافي، فلا تجد به شائبة من شوائب الشك.

وقد وصف بعض النقاد أشعار شاعرنا بأنها رومانسية، وهو اتهام غير صحيح. فالرومانسية - كما يقرر أصحابها - تعتمد على الإفراط في المبالغة، والإغراق في الخيال والشطط الفكري، والهروب من الواقع. وأشعار محمد هاشم رشيد غير ذلك. فهو لا يغرق في الخيال (في قصائده) هرباً من الواقع، بل يغرق في الواقع حتى يبدع في الخيال، والمبالغة عنده غير مقصودة لذاتها، ولكنها تأتي عفوية، أو نتيجة لسداعي الأفكار وانسيابها، أو بسبب حرص الشاعر على توليد المعاني. وخلاصة القول: إن محمد هاشم رشيد شاعر ذو نهج متميز، فهو ينطلق في رؤاه الشعرية من محاور إسلامية، ويوازن بنجاح بين الواقع الإنساني والخيال الفني المبدع الذي لا يعتمد على الإسراف والشطط في التصوير.